الاهداء:

الى كل فرد من أهالي طولكرم والقضاء

والى كل فلسطيني يعيش في الشتات

أقدم كتابي هذا .







صورة لوثيقة من وثائق الكتاب

مقدمة عن تاريخ طولكرم

حاول بعض المؤلفين الكتابة عن تاريخ طولكرم، فوصفوا موقعها وتكلموا عن جغرافيتها ولم يأتوا ببيان يذكر عن تاريخها وأوليتها، فكان بحثهم ناقصا وهم معذورون لعدم وجود ادلة او وثائق لديهم، كما لم يتطرقوا للتكلم عن سكانها كأُسَرٍ او كعائلات، وهم عصب التاريخ دائما في كل قطر او مكان.

والآن، وقد تيسرّ لي وثائق ثابتة عثرت عليها عند آل الطياح وهم من اقدم السكان بطولكرم – وهذه الوثائق عبارة عن مخطوطات بيع او شراء او محاكمات وفضّ مشاكل بين اهلها – اعني طولكرم – في مجلس اسلامي استشاري اسسه شيوخ آل البرقاوي حكامها الأولون زمن العثمانيين في دولة الخلافة الاسلامية التي كان مقرها في استانبول (اسلام بول) عاصمة العثمانيين، وهذه الوثائق تدلنا دلالة واضحة على اوليتها من الوجهة التاريخية، كما عثرت على اوراق قديمة عند البعض من آل البرقاوي تدل على تاريخها، وهي مطبوعة بخط عربي مزيج من الكلمات التركية كقولهم «قضا سنده»، اي «مركز القضاء»، وهو وصف لقرية شوفة مركز امراء البرقاوي في اقطاعهم المتكون من الشعراويات ووادي الشعير وهذه الوثائق مطبوعة بشكل غير قابل للتقليد والتحريف، فساعدتني هذه الوثائق مع وثائق الطياح على التعرف على تاريخ طولكرم حيث كانت قرية صغيرة تابعة لمركز

الامارة في شوفة، وليست ذات اثار بل انها ارض او تلة صالحة لزراعة كروم العنب والفواكه والاشجار، وقد علمت من الوثائق السالفة ان اسمها كان يدعى طوركرم، كما تأكدت ان اسمها اخذ من طورين يعلوانها وهما ملاصقان لها، الاول هو كرم سليمان ابو خليل في طور يعلوها وهو الملاصق لقرية ذنابه من الجنوب، والاخر كرم لآل الطياح في الجنوب الشرقي منها ويعلو عنها اكثر من الأول وبه سميت، كما ذكرت الوثائق اسماء الاشخاص من اقدم سكانها او من سكان الاقطاع التي هي تابعة له وقد افرغت هنا كل ما وصل لعلمي عن تاريخها، والله الموفق الى سواء السبيل.

المؤلف

خليل حسين البرقاوي

تاريخ كتابة المقدمه ١٩٩٤

طولكرم

بقيت طولكرم (طول كرم) قرية صغيرة طوال العصور العربية وايام عهد الاقطاع زمن العثمانيين، وفي القرون الحادي عشر الى الثالث عشر الهجري.

وفي عهد الاقطاع هذا اتخذها شيوخ البرقاوي مركزا ثالثا لهم مضافا الى مركزهم في برقة وشوفه وجُعلت شوفه التي كانت مركزا هاما لآل البرقاوي في اقطاعهم الذي يضم وادي الشعير والشعراويات جعلت قصبة اي مركز قضاء واصبحت طولكرم قرية تابعة لمركز القضاء اي القصبة في شوفه كما تدل على ذلك الوثائق الرسمية، هكذا اتُخذت مركزا ثالثا للاقطاع وذلك لسهولة المواصلات سيما مع نابلس التي كانت مركزا للواء البلقاء او بعبارة اخرى وجهة البلقاء التي كانت تمتد من شاطىء البحر غربا الى الصحراء شرقي الكرك من الشرق.

موقعها: تقع طولكرم من وجهة عامة بين حيفا شمالا ويافا جنوبا في موقع متوسط بينهما، وفي موقع بين السهول غربا والجبال شرقا، وهي تشرف على سهل واسع خصب جميل هو السهل الساحلي وهي تقع على هضبة تعلو نحو ١٢٥ مترا عن سطح البحر وينحدر موقعها من اعلى الى جميع الجهات حتى يبلغ ادنى النقاط انخفاضا ٥٥ مترا فوق سطح البحر

وتبعد طولكرم عن البحر نحو ١٧ كم، وهي واقعة على الطريق الروماني القديم المؤدي الى نابلس منذ القِدَم. وتقع الى الجنوب الغربي منها مدينة قلقيلية. وهي تشكل احد رؤوس المثلث الذي اطلق عليه مثلث الرعب او المثلث الخطر، ويقع رأساه الاخران في مدينتي نابلس وجنين. وتشرف المدينة على واديين احدهما وادي الزومر الى شمالها والاخر وادي التبن الواقع الى جنوبها.

ويرجح ان موقعها عُرِفَ اواخر العهد الروماني في بلادنا عندما فتحت الطريق الكريسة (وهي كلمة تركية) الى نابلس كما ذكر وهي معبدة وقد شملت حدود طولكرم في المدة الاخيرة ثلاث ضواحي كلٌ تقع على تلة مرتفعة وهذه الضواحي هي: ضاحية شويكة شمالا وضاحية ارتاح جنوبا وضاحية ذنابة شرقا. وتمتاز طولكرم بجمال موقعها وتتصل بطريق حيوي ممهد الى نابلس كما ذكر وهي طريق معبدة. ويمتاز سهلها الساحلي بخصبه منذ اقدم العصور. ففي ايام الربيع تكتسي طولكرم بحلة خضراء تكسبها جمالا وبهاء، بالاضافة الى ان موقعها موقع تجاري ممتاز سيما بسبب سوقها يوم السبت من كل اسبوع، وهو سوق تجاري رائع وهام يؤمه السكان من القرى المجاورة والمدن فيبيعون ويشترون من الحاجيات او الحبوب او الحيوانات. وكثرت تجارتها وازداد عدد سكانها وارتفعت اجور البنايات فيها فاضطر بعض الاغنياء الى اقامة الابنية الجديدة.

ونعود للقول ان الطريق الساحلي الذي صار يجتاز البلاد من جنوبها الى شمالها ويصلها - اعني البلاد جنوبا - بمصر وبالاناضول والشام شمالا دون ان يمر بها - اي بطولكرم - قلل من اهميتها.

وهي تقع على خط العرض الجغرافي ٩ - ٣٢ شمال خط الاستواء وعلى خط الطول الجغرافي ١ - ٣٥ شرقي جرينتش.

وتبعد نحو ٢٩ كم الى الغرب الشمالي من نابلس.

والمساحة التي تقوم عليها طولكرم - اي المساحة التنظيمية - تبلغ نحو ٣٥٨٠ دونما اما مساحة الارض التي في السهل الساحلي التابعة لها قبل نكبة ١٩٤٨ المشؤومة فتبلغ نحو ٣٨٢٧٥ دونما ولم يبق منها بعد نكبة ٤٨ سوى ٤٤٥٢ دونما.

تسمية المدينة: وأصل تسمية المدينة هذه (طور كرم) والطور هو الجبل او ما كان على حد الشيء او بمحاذاته، والكرم تعني شجرة العنب، وهي

في العامية ارض يحيط بها حائط او سياج من الاشجار او الصبار او الاسلاك الشائكة وبداخله اشجار تكون عادة مثمرة، والخلاصة ان معنى طوركرم – الجبل المزروع بالاشجار المثمرة، ثم حرِّفَ فيما بعد ليصبح الاسم – طولكرم. وهنا نقف قليلا لنقول بانه يلتصق بطولكرم من الشرق كرم قريب من قرية ذنابة الواقعة الى الشرق من طولكرم ويدعى بكرم سليمان ابو خليل، وهو يرتفع عن موقع طولكرم. وكذلك يلتصق بطولكرم من الجنوب الشرقي طور اعلى من الاول يعلو طولكرم فيه كرم او جنينة لآل الطياح من سكان طولكرم فيه كثير من الاشجار المثمرة كالكرمة (العنب) والتين وغيرها من الفواكه حتى وصف هذا الاسم او الجنينة في اغاني الاعراس بالعامية للنساء بقولهن:

يا جنينة الطياح فيها او فيها
كل العرب والغُز نزلت فيها»

اي فيها من اشجار الكرمة وغيرها الشيء الكثير وان الناس المسافرين من عرب وغُز – اي اتراك – مروا بها في سفرهم او زاروها، فلا شك بأن طولكرم اخذت اسمهامن هذا الطور ثم حرف اسمها من طوركرم الى طولكرم، تبعا لهذا الموقع

ولا بأس من ان نذكر الخرب والبقاع الاثرية الواقعة في جنبات طولكرم، وهي:

١) خربة البرج، تقع على بعد نحو تسعة كيلومترات غربي طولكرم، وتعرف ايضا باسم برج العطعوط، نسبة الى اصحابها وهم من اقدم سكان طولكرم.

ذكرتها المصادر العربية القديمة باسم البرج الاحمر، وهي البقعة التي اقطعها الظاهر بيبرس عام ٦٦٣ هجرية (الموافق ١٢٦٥ ميلادية) لقائدين من قواده، هما: الامير سيف الدين بلبان الزيني الصالحي والامير ناصر الدين القيمري (١). وكان الامير سيف الدين بلبان يتولى

(١) خطط المقريزي وكتاب السلوك في معرفة دول الملوك للمقريزي

وظيفة صاحبها يقوم بكتابة المناشير السلطانية وكتابة الطبلخانات.

والامير ناصر الدين القيمري هو ابو المعالي حسين بن عزيز بن ابي الفوارس القيمري الكردي نائب السلطنة بالساحل، وفي عام ٦٦٢ هجرية اغار على قيسارية وعثليث فغنم وقتل واسر الكثيرين من الفرنج وتوفي عام ٦٦٥ هجرية. وتحتوي خربة البرج على بقايا برج وعقود واثار بركة واساسات (قرب كفار يونا غربا).

٢) خربة ام صور، وهي تحريف صوران SURAN القرية التي كانت تقوم على هذه الخربة في العهد الروماني وتقع في الجنوب الغربي من خربة البرج وعلى مسيرة نحو ٣ كم منها، وتحتوي على تل منخفض من بقايا سور محيط وابنية واثار وعقود واعمدة وصهاريج وخزان في جانب البئر.

٣) خربة بورين: تقع في الغرب من طولكرم وعلى مسيرة ٤ كم وهي التي اقتطعها الظاهر بيبرس مناصفة بين الامير جمال الدين اقوش المحمدي الصالحي والامير فخر الدين الطنبا الحمصي (٢) وفي الحروب الفرنجية كانت تقوم قلقة على هذه الخربة التي تحتوي على تل من الانقاض واساسات.

٤) نور شمس: تقع شرقي طولكرم، على بعد نحو ٣ كم وفيها مخيم كبير للاجئين وليس فيها اثار ذات بال. فيها مدرستان للوكالة تضم صفوفا ابتدائية واعدادية بلغ عدد طلابها عام ٦٦ – ٦٧ نحو ٤٥٤ طالبا والمدرسة الثانية للبنات ابتدائية واعدادية تضم نحو ٣٩٣ طالبة.

طولكرم من ناحية طبيعية

البنية الجيولوجية والتضاريس تشبه طولكرم – سيما القسم الشرقي منها – من الناحية الجيولوجية سوريا ولبنان، وهي تشابه في منظرها العام مناظر سوريا ولبنان، ذلك ان هناك قاعدة غرانيتية منذ القدم تتوضع في اسفل التطبق.

(٢) السلوك في معرفة دول الملوك للمقريزي

وقد غمرت هذه القاعدة برسوبات الادوار الجيولوجية التالية ولا سيما الدور الثاني والثالث، حيث لا تظهر القاعدة هنا في منطقة طولكرم اطلاقا.

اما في الدور الثالث فقد حدثت التواءات وانهدامات وتدافعات بركانية نتج عنها محدبان التوائيان هما المحدب الشرقي والمحدب الغربي، وبين هذين المحدبين انهدام الغور اي منطقة الاغوار.

وقد تجزأ هذا المحدب الغربي بالصدوع العرضانية التي تتجه من الشرق الى الغرب.

ومدينة طولكرم واقعة على هضبة حوارية، وهي تشكل اقدم سفوح جبال نابلس، والهضبة هذه واحدة من سلسلة الهضاب الكلسية المجزأة التي تميل غربا مع الميل العام للسفح الغربي المحدب لجبال نابلس.

هذا وتحيطها التلال من الشرق، والتي تظهر فيها التكوينات الطباشيرية اللينة على السطح، والتي تتسع على حسابها بطون الاودية التي تحتضنها هذه التلال من الجنوب والشرق، كما تتكاثف عليها اغطية من التربة القليلة الاحجار.

وتمتد اسفل هذه الهضبة اللحفيات التي فرشتها السيول الاتية من مرتفعات الجبال الشرقية ومعظمها كلسية ذات لون احمر.

وقد امتدت اللحفيات هذه في الدور الرابع. راهم هذه اللحفيات لحفيات سهل شارونه الواقع غربي طولكرم.

وكذلك اللحفيات الواقعة في الشمال من طولكرم على طول وادي الزومر او بعبارة اخرى على طول وادي الشعير القادم من جبال نابلس حيث تتكون من هذه اللحفيات ارض خصبة تدعى بأرض الهدفة نسبة الى اهلها وهم من عشيرة من قبيلة برقة من عتيبة من مضر.

تضاريس المنطقة: منطقة طولكركم منطقة هضابية مجزأة بوديان حتية خلفتها المسيلات المائية الشتائية التي تنحدر من المرتفعات

الشرقية نحو الغرب. وطولكرم نفسها تقع على هضبة ترتفع نحو ١٢٥ مترا وتنحدر الى جهاتها الاربع حتى يبلغ ادنى الانخفاض ٥٥ مترا كما ذكرنا سابقا وذلك في الغرب عند التقاء السهل الساحلي مع الهضبة ويزداد ارتفاع الهضبة تدريجيا كلما اتجهنا الى الشرق والشمال الشرقي وتتراوح الارتفاعات هذه من ٣٠٠ - ٥٠٠ متر حتى يصل ارتفاع قرية بيت ليد الواقعة على مسافة ١١ كيلومترا شرقا نحو ٤٣٩ مترا وعلى ذلك كانت المسيلات شديدة بالنسبة للارتفاع.

طبيعة التربة: من المعروف ان طبيعة التربة لها دور هام في حياة السكان، لأن ذلك الغطاء السطحي الذي يغطي الأرض والذي قد يكون سميكا غنيا بالمواد المخصبة للنبات والضرورية لحياته.

ويكون هذا الغطاء رقيقا حتى يكون مجرد قشرة رقيقة لا نفع فيها للنبات.

وتنشأ التربة عادة من تفتت الصخور بتأثير العوامل المتعددة، وتمتزج مع بقايا الحيوانات والنباتات وتصبح صالحة للزراعة. والتربة عندنا في طولكرم تكون غالبا كلسية غضارية تتألف بالدرجة الاولى من المجروفات والمواد التي اتت بها السيول من الجبال الشرقية، وتوضعت في الوديان والمنخفضات سيما في السهل الممتد امامها من الغرب وعلى جانبيها من الشمال والجنوب الشرقي.

اما في المرتفعات الجبلية فترق التربة وتكون معرضة لخطر الانجراف شتاء، وعلى الاخص اذا كانت هذه المرتفعات خالية من النباتات (كالنتش) وغير ذلك من الاشجار الكبيرة، سيما الزيتون التي تحميها من الانجراف وتحافظ على سمكها.

وقد اقيمت في المنحدرات الجدران الاستنادية واستغلت المصاطب الجبلية في زراعة الحبوب والبقوليات وبعض الاشجار المثمرة كاللوز والعنب.

هذا مع العلم ان سمك التربة يختلف بين موقع واخر، فبينما يبلغ سمكها

عدة سنتيمترات في جهة من السفوح نراه يبلغ نصف المتر في جهة اخرى، ويبلغ سمكها عدة امتار في المنخفضات.

والتربة في منطقة طولكرم غنية بغذاء النباتات على اختلافها بل هي من اخصب البقاع في العالم، والدليل على ذلك انها مستترة منذ اقدم الازمنة حتى الان ولا تزال تتمتع بخصوبة فائقة جعلتها منطقة زراعية من الدرجة الاولى.

المناخ: ان مناخ طولكرم ينتظم ضمن الخطوط العريضة مع مناخ البحر الابيض المتوسط، ولكن لا بد من وجود تأثيرات محلية ناجمة عن الموقع والتضاريس. فمناخ هذه المنطقة وسَط بين المناخ الداخلي والمناخ الساحلي، ولكن اقرب الى المناخ الساحلي بسبب قرب المدينة من البحر وبسبب عدم وجود حواجز او اية عوائق تضاريسية تمنع وصول هذه التأثيرات، لهذا يتميز مناخ المنطقة بأمطار مناسبة وفروق حرارية متوسطة وفصل جاف طويل، ويظهر فصلا الصيف والشتاء في هذه المنطقة بوضوح بينما الفصول الاخرى تكون قصيرة، فالسنة هنا مقسمة الى فصل الصيف الحار الجاف وفصل الشتاء البارد والماطر، بينما يكون فصل الربيع قصيرا لمدة شهرين تقريبا، ويكتمل الانتقال من الشتاء الى الربيع في شهر نيسان، اما الخريف فعادة يكون جافا وتنخفض درجة الحرارة فيه.

العناصر المناخية في منطقة طولكرم:

١ – **الحرارة**: تختلف الحرارة في طولكرم بين الليل والنهار وبين الصيف والشتاء، والشعات الحرارية واضحة بين اكثر الاشهر حرارة واكثر الاشهر برودة فيبلغ معدل درجة الحرارة في شهر اب ٣٠ درجة مئوية، وهو اكثر الاشهر حرارة في هذه المنطقة حتى وصفه السكان بقولهم «آب اللهّاب»، في حين تنخفض الحرارة شتاءً بشكل واضح سيما في كانون الثاني وشباط، فمعدل كانون الثاني ١٥° درجة مئوية،

ومعدل شباط ١٦° درجة مئوية وفيما يلي جدول يبين درجات الحرارة القصوى لسنة ١٩٧٤ ميلادية، كما اعدها "مركز الارصاد التابع للمعهد الزراعي – خضوري – في طولكرم سنة ١٩٧٤:

الشهر	كانون ٢	شباط	اذار	نيسان	ايار	حزيران
درجة الحرارة	٢٢	٢٥	٢٥	٢٧	٢٨	٢٨
الشهر	تموز	اب	ايلول	تشرين١	تشرين٢	كانون ١
درجة الحرارة	٣٢	٣٥	٣٢	٢٨	٢٨	٢٨

نلاحظ من هذه الارقام ان تغير درجة الحرارة تدريجي ولكننا نلاحظ في مناخ هذه المنطقة ان الحرارة تختلف من سنة لاخرى، فبعض السنين يكون صيفها شديد الحرارة والبعض الاخر صيفها قليل الحرارة. كما انه قد تأتي سنين شديدة البرودة شتاء كما حصل سنة ٦٣ / ٦٤م اي ان حالات الشذوذ ليست نادرة تماما.

٢ – **الرياح**: تتأثر المنطقة برياح تختلف من فصل لاخر، وسنتحدث عن رياح كل فصل على حدة:

في **الشتاء**: تهب على المنطقة رياح غربية وجنوبية تجلب الرطوبة والامطار وتتأثر هذه الرياح بالضغوط المنخفضة المتمركزة على حوض البحر الابيض المتوسط في هذا الفصل وقد تهب فيه ايضا رياح اتية من الضغوط العالية للبلقان ويقال لها الرياح الشمالية وهي رياح باردة جافة كما انه قد تتعرض المنطقة لرياح جنوبية او جنوبية شرقية قادمة من الضغط العالي المتمركز في قلب الجزيرة العربية وتكون ايضا باردة وجافة.

والرياح الشتوية هذه تهب من تشرين اول حتى نيسان، فتخلق طقسا مضطربا تتناوب فيه الامطار مع فترات الهدوء والصحو ويشتد الاضطراب في كانون الثاني وشباط حيث تهطل الامطار بغزارة

في الصيف: تسود الرياح الغربية على منطقة طولكرم وخصوصا انها تقوى بنسيم البحر الذي يهب في النهار ويقوى شيئا فشيئا مساء وذلك للتباين الحراري بين البحر والقارة وهذه الرياح الغربية ونسيم البحر اليومي هما اللذان يلطفان الحرارة في الصيف سيما على الاماكن المرتفعة.

في الربيع والخريف: تهب في الربيع رياح غربية اقل عنفا وقد تهب رياح جنوبية شرقية اتية من البادية وتكون هذه الرياح ساخنة وجافة.

وفي الخريف تسود الرياح الغربية ولكنها تنقلب في نهايته جنوبية شرقية حاملة الغبار معها، وتسمى الشرقية، وهي نتيجة الاختلاف الحراري بين البحر والبادية في الداخل.

٣ - الرطوبة: للرطوبة دور فعال في حياة المنطقة من الناحية الزراعية؛ فهي تلطف من الجفاف الصيفي وتساعد على نجاح المزروعات الصيفية. ومنطقة طولكرم ذات رطوبة مرتفعة بسبب هبوب الرياح الغربية المحملة ببخار الماء، ولكن الرطوبة تختلف بين الصيف والشتاء، كما انها تختلف ايضا بين اوقات النهار، فهي مرتفعة في الصباح حيث تتشكل قطرات الندى التي تستفيد منها النباتات كثيرا، اما عند الظهيرة فتقل الرطوبة وعلى العموم لا تنزل الى اقل من ٤٠٪ وفيما يلي جدول بمعدل الرطوبة النسبية لأشهر سنة ١٩٧٤، كما اعدها "مركز الأرصاد التابع للمعهد الزراعي خضوري في طولكرم:

الشهر	كانون ٢	شباط	اذار	نيسان	ايار	حزيران
الرطوبة النسبية	٩٠	٨٠	٨٣	٤٢	٤٥	٩٠
الشهر	تموز	اب	ايلول	تشرين١	تشرين٢	كانون ١
الرطوبة النسبية	٢٥	٢٥	٣٠	٣٥	٦٠	٩٠

امطارها: بلغ متوسط سقوط الامطار فيها من عام ١٩٠١ الى عام ١٩٤٠ - ٥٦٤.٦ ملم، ويتضح من كميات الامطار من سنة ١٩٢٦ -

٢٧ - ٤٣ - ٤٤ أن عام ٣١ - ٣٢ كان اقلها، حيث بلغت الامطار ٢٢٣.٢ ملم وان عام ٢٨ - ٢٩ كان اغزرها (٩٠٨ملم).

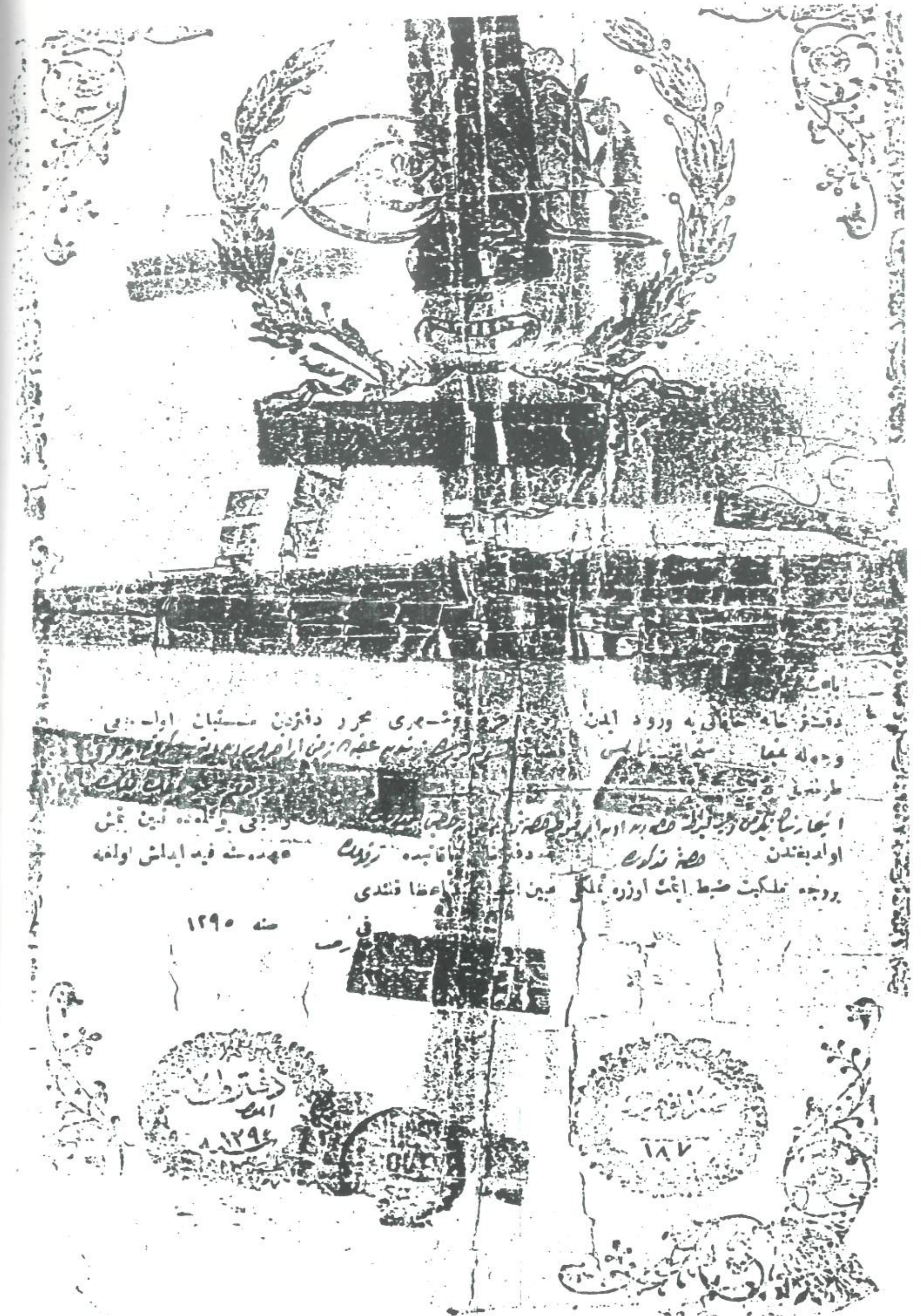
وكان معدل الامطار بين سنتي ٥٢ - ٦١ هو ٥٨٨ ملم وكثر هطول الامطار كان سنة ٦١ إذ بلغ ٧٦٦.٥ ملم وكان اقلها عام ٥٩ حيث بلغ ٤٧٠ ملم. وفي سنة ٦٤ - ٦٥ بلغ ٩٠٠ ملم اكثرها. ولا تعرف طولكرم سقوط الثلج االشديد كغيرها من القرى الساحلية الا في سنين نادرة جدا واذا سقط فلا يدوم الا لمدة وجيزة.

درجة الحرارة في طولكرم: يعتبر شهر اب اشد الشهور حرارة وبلغ معدل درجة الحرارة فيه ٣٧ س : ٨١ ف. كما يعتبر شباط ادناها حرارة وتبلغ درجة الحرارة فيه ١٣.٥ س : ٥٦ ف. والرطوبة في طولكرم تتراوح بين ٤٠ - ٧٠ ٪ في الصيف ومن ٧٠ - ٨٥ ٪ شتاء.

طولكرم عبر التاريخ

تأسست طولكرم - كما اسلفنا - في العهد الروماني ولم تكن لهذه البلدة اهمية تاريخية بسبب بعدها عن الطريق الرئيسي التي كانت تخترق ألبلاد وتصل ما بين مصر جنوبا والاناضول والشام شمالا.

وقد ذكر احمد بن علي المقريزي (٧٦٦ - ٨٤٥ هـ) طولكرم باسم طوركرم وقال ان الظاهر بيبرس اقطعها في عام ٦٦٣ هـ (١٢٦٥م) مناصفة بين قائدين من قواده، هما الامير بدر الدين الخازندار والامير بدر الدين بيسري الشمسي الصالحي. وكان الخازندار مملوكا للظاهر بيبرس قبل سلطنته فلما صار سلطانا اقامه في نيابة سلطنته عام ٦٥٨ هـ وفوض اليه شؤون الدولة. ولما مات بيبرس في دمشق وكان معه بيليك كتم خبر موته لئلا يطمع التتار في بلاده وسار الى مصر ومعه صحفة السلطان التي كانه فيها حتى بلغ مصر فأعلن للناس موت سلطانهم واتم سلطنة ابنه الملك السعيد محمد بركه خان فاقره هذا



الملك في نيابته. وكانت وفاة بيليك في عام ٦٧٦ هـ وكان الظاهر بيبرس قد عهد الى الامير بدر الدين بيسري بمنازلة حصن "القرين" الافرنجي الواقع في شمال عكا وقد تم اخذه في عام ٦٦٩ (١٢٧١م).

وفي "الانس الجليل" ذكر ان الامير فارس البكي نائب السلطنة بالاعمال الساحلية والجبلية اوقف في عام ٧٥٥ هـ حصته من قرية طوركرم على المدرسة الفارسية بالقدس.

وذكرت المصادر الافرنجية طوركرم باسم TURCARM والطور كما ذكرنا سابقا هو الجبل او جبل ينبت الشجر فيكون المعنى جبل الكرم والطور ايضا ما كان على حد الشيء او بمحاذاته، ولما كانت طولكرم تقع على نهاية التلال (الجبال) وفي طرف السهل فيكون المعنى الكروم التي على الحد ولعل الاول هو الصواب فالكروم التي اشتهرت بزراعتها بلادنا اعطت اسمها لهذه البلدة الناشئة وسنعاود الحديث عن طولكرم من هذه الناحية لنوفي هذا الموضوع حقه الثابت بعون الله تعالى وتوفيقه، وقد بقيت طولكرم معروفة باسم طوركرم الى ما بعد القرن الثاني عشر للهجرة بقليل. وذكر المحبي المتوفى عام سنة ١١١١ هـ (١٦٩٩م) بعض علمائها نسبهم الى طوركرم ومثله محمد جميل الشطي الحنبلي مختصر طبقات الحنابلة حيث ذكر بعض علمائها ونسبهم الى طوركرم لكن مع الزمن حُرِّفَ الطور الى طول.

طولكرم تحت حكم الاقطاع

كانت طولكرم تعتبر منذ قبيل القرن الحادي عشر الهجري مركزا جديدا لاقطاع ال البرقاوي وقد تحسن حالها والحالة هذه ونمت حيث اصبحت على الطريق العام بين نابلس ويافا وكانت مع الاقطاع تابعة لولاية بيروت ولمتصرفيّة عكا في الشمال الغربي من فلسطين على الساحل الى الشمال من حيفا وذلك في زمن الدولة العثمانية. ونعمت في هذا العصر بقسط من الحرية والعدالة كيف لا وهي تحت حكم

اسلامي محض حيث اعتبرها تابعة لمركزهم الهام في قرية شوفة ذات القلعة الحصينة. واحيانا مؤخرا كانت تابعة لمركزهم في ذنابة التي اصبحت حصينة وذات سور سيما زمن الظاهر العمر والي عكا. وكان شيوخ البرقاوي يديرون شؤون طولكرم العامة بالنسبة لجميع مرافق الحياة فأنشأوا مطحنة للحبوب في الجزء الغربي من دار سواد التي ابتنوها واوقفوها لدار سواد وغيرهم من السكان.

وانشأوا بئرا للماء النبع في الجزء الغربي من طولكرم للشرب وساعد في حفره احد الصالحين من دمشق يدعى السيد جميل العابد وكتب عليه بعد إتمامه شعرا تكريما له، جاء فيه:

خيـر اثار جميل العابد / منـهل انشـأه للـوارد

رغبة في فعل خير دائم / وكذا فعل الكريم الماجد

هذا الى ما هنالك من مرافق عامة اخرى. وكان شيوخ البرقاوي يديرون من طولكرم شؤون قرى الاقطاع بكامله في وادي الشعير والشعراويات مع احتفاظهم بمركزهم في شوفة.

وكان البرقاويون – وهم زعماء قبيلة برقة من عتيبة من مضر – في اوليتهم ابتنوا برقة وسموها باسم القبيلة وكان لهم فيها قصر لا يزال ومضافة لا تزال تعرف بمضافة محمد الناصر البرقاوي واهل برقة كلهم من هذه القبيلة وتضم فروعا من جذمي قحطان وعدنان ولهذه القبيلة فروع عديدة في الجزيرة العربية ودول الخليج والسعودية والكويت وفلسطين وسوريا ومصر والمغرب الخ وتعتبر برقة القريبة من نابلس مركز ال البرقاوي الاصلي في فلسطين ومن قلاعهم فيهابظهور برقة من الشرق قلعة "سرطاسة" وقلعة "بايزيد" والقبيبات بالاضافة الى قلعة الشيخ عيسى البرقاوي التي تطل على سبسطية وبرقة من الشرق وتدعى بالشيخ شعله وهو لقب للشيخ عيسى المذكور نظرا لتوقد ذكائه ولشدة حماسه للدفاع عن وطنه ضد الغزاة والطامعين مع العلم بأنه

اعظم شخصية ظهرت من حكام طولكرم والاقطاع بعد سلفه فخر المشايخ المكرمين ناصر البرقاوي، سيما في دفاع الشيخ عيسى المذكور عن الخلافة الاسلامية في حربه ضد ابراهيم باشا المصري.

ونعود للقول ان شيوخ البرقاوي كانوا يقيمون نهارهم في طولكرم في دار تدعى دار سواد التي بنوها كوقف لاقامتهم فيها نهارا. وسواد هؤلاء اسرة عريقة النسب وهم من اقدم سكان المدينة وهم اصهار لآل ابي الرب ذوي النسب الشريف الذين يتصل نسبهم هم وآل البرقاوي والمغربي بالشجرة النبوية الشريفة. وفي هذه الدار – اي دار سواد – توجد غرف كثيرة لسكنى دار سواد ودار ابي الرب وغيرهم بالاضافة الى الدوائر المختلفة لادارة المدينة والاقطاع وفيها سجن لحبس الجناة ، وهي واسعة وتشبه القلعة المسوّرة وهي اقدم بناية في المدينة وبجانبها من الشرق جامع علي المغربي الحسني سمي باسمه لأنه ساهم في بنائه مع ال البرقاوي. وفي الجهة الغربية والشمالية والشرقية من الدار مخازن للتجارة ومطحنة للحبوب كما اسلفنا ومداخل للسكن فيها كدار لآل السخن وغيرهم. ومثل ذلك في الجهة الغربية من الشارع في الدور المقابلة لدار سواد حيث يفصل الشارع بين البناءين وكان يسكنها ال عيسى الماضي والدسوقي والمغربي، وهؤلاء الاسر الثلاثة يتصل نسبهم بالشجرة النبوية الشريفة وقد امتاز اقطاع آل البرقاوي بكثرة العائلات المتصل نسبهم بالشجرة النبوية الشريفة، فكان هذا الاقطاع واحة من ال بيت الرسول محمد (ص) ففي شويكة عائلات شريفة تنتسب للشجرة النبوية كعائلة الاشراف وعائلة امسيح (المسامح) ومرعي وفي عتيل آل العتيلي والبسيوني وفي النزلة الوسطى آل كتانه وفي كفر اللبد آل عبد الباقي وغيرهم. كما نجد اسرا من الانصار كآل ناصر في عتيل وآل سواد في طولكرم وبعض سكان النزلات كما نجد اسرا تنتسب الى صحابة الرسول محمد (ص) كآل التفال في ذنابه

الذين يرجعون بنسبهم الى الصحابي عبد الرحمن بن عوف، وغيرهم من اهل التقوى والصلاح ولا عجب اذا قلنا ان هذه الاسر المذكورة عموما اشتهرت بالبذل والعطاء والمساهمة في مشاريع الخير.

ولا يفوتنا القول ان هذا الاقطاع اشتهر بكثرة العلماء والفقهاء فيه ففي رامين اشتهر من المنتسبين اليها ال المفلح الراميني وفي شويكه علماء مثل شهاب الدين احمد الشويكي وفي برقة علماء مثل الشيخ مصطفى البرقاوي القاضي والشيخ يوسف البرقاوي شيخ رواق الحنابلة في الازهر الشريف بمصر. وفي طولكرم علماء مثل الشيخ مرعي الكرمي المقدسي وابن اخيه شهاب الدين احمد بن يحيى الكرمي المقدسي والشيخ سعيد الكرمي ومن المنتسبين الى قرية ذنابة الشيخ ابراهيم الذنابي العوفي نسبة الى الصحابي عبد الرحمن بن عوف والشيخ عبد الرحيم التفال العوفي والشيخ محمد الخريشي وابنه الشيخ اسحق الخريشي.

ومن طولكرم ايضا الشيخ توفيق بن مصطفى البرقاوي ومن قرية جت الشيخ سعيد الجتّي من المتأخرين.

ومن سفارين الشيخ محمد السفاريني والشيخ عبد الله الحطابي ومن كفر اللبد الشيخ محمد بن مصطفى بن عبد الحق اللبدي والشيخ عبد الغني بن ياسين اللبدي ولاحقا سنتطرق الى سيَرهم بايضاح.

والان نعود للحديث عن دار سواد المركز الهام في طولكرم لشيوخ البرقاوي حيث ذكرنا انهم يقيمون بها نهارا لادارة شؤون طولكرم وقرى الاقطاع.

اما مبيت شيوخ البرقاوي ليلا ففي شوفة او في بعض قلاعهم في الجبال او في قرية برقة او ذنابة او كفر اللبد.

وفي دار سواد هذه شكل شيوخ البرقاوي مجلسا اسلاميا استشاريا ومحكمة صلح ومكانا لعقود البيع والشراء بين المواطنين بالنسبة

للاراضي او الابار او الدور او الممتلكات بأنواعها حيث لم تكن في البلدة دائرة للطابو وتسجيل المبيعات او المشتريات. وهذا ثابت من الوثائق الخطية اي المخطوطات التي وجدت عند ال الطياح في طولكرم وهذه الوثائق عبارة عن اوراق عقود بيع وشراء او فض مشاكل بين المتخاصمين ونحو ذلك. والمبايعات او فض المشاكل ونحوها وكان يصادق عليها احد شيوخ ال البرقاوي واحد شيوخ علماء الشريعة الاسلامية وفي بعض هذه الوثائق توقيع احد شيوخ ال العتيلي وهم اشراف حسينيون واحيانا كان يصادق عليها احد شيوخ ال الدسوقي من فرديسيا قرب بلدة الطيبة. وبعض هذه الوثائق كان موقع عليه من بعض شيوخ ال التفال الفقهاء. واحيانا مؤخرا كان يصادق عليها احد افراد ال الكرمي الفقهاء وقد اتوا الى طولكرم من مصر قبيل غزو ابراهيم باشا المصري للبلاد بقليل وهم يمانيو الاصل.

وكان يوقع على هذه الوثائق بعد القرار شهود من طولكرم او من برقة او عتيل او بلعا او عنبتا او بيت ليد او غيرها من قرى الاقطاع بعد توقيع امير الاقطاع وشيخ من شيوخ الشرع الشريف الفقهاء وهذه الاوراق موجودة لدى ال الطياح ولدينا صور عنها يمكن الاطلاع عليها.

واقدم من عُرف من شيوخ ال البرقاوي في طولكرم الشيخ ناصر البرقاوي المشار اليه في الوثائق المذكورة : بفخر المشايخ المكرمين ناصر البرقاوي ومعروف ان عبارة فخر المشايخ تشير غالبا الى من يرجع نسبه الى آل البيت الكرماء، كما تشير هذه الوثائق الى تاريخ وجوده في طولكرم سنة ١١٨٣ هـ وتوفي سنة ١١٨٦ هـ وقبره موجود في شوفة وعليه رثاء على حافلة الضريح من قبل الشيخ محمد السفاريني ابو العون المتوفي سنة ١١٨٨ هـ ويقول في رثائه للشيخ ناصر المذكور هذه الابيات من الشعر يعدد فيها مناقبه وصفاته:

سقى الله قبرا كان للعفو مرقدا / به ماجد قد حاز عزا وسؤددا

١١٨٢ هـ

فخر المشايخ المكرمين
ناصر البرقاوي

زكت في الورى اوصافه وخلاله / وطاب فعالا في الانام ومحتدا
فقيد الورى من كان للحق ناصرا / وفي الصدق في كل الامور مؤيدا
رمته يد الطاعون شلت يمينها / بسهم له اردى وللحتف اوردا
فاضحى شهيدا في جوار مليكه / يشاهد عيشا رحمة منه ارغدا

وقد جاء ذكره في تاريخ جبل نابلس والبلقاء لاحسان النمر في صفحتي ٥٥٥ - ٥٥٦ من الجزء الثاني بأن الشيخ ناصر المذكور كان قبل وجوده في شوفة يسكن برقة وكان له فيها قصر ومضافة وقلاع وكان مما اظهر امره اظهار غنم البرغوثي الذي عجز عن ردها اليه غيره من المشايخ حيث كانت نهبت منه من قبل عائلة في دير الغصون يعتقد انها من السورة او دار غانم او غيرهم حيث كتب الشيخ ناصر كتابا لهذه العائلة واوصلها البرغوثي لها وتسلم غنمه كاملة فمدحه البرغوثي بشعره العامي بقوله:

لا مشايخ لاش / وقيل ماش مشايخ ماش
من بعد شيخة ناصر / كل المشايخ لاشي بلاش

وممن ذكر في الوثائق المذكورة فخر المشايخ موسى البرقاوي. وكان قد ذكر اسمه في طولكرم سنة ١٢١٦ هـ وقد انتقل من شوفة قبيل ذلك بمدة الى قرية ذنابة حيث ابتنى له قصرا فيها واحاط ذنابة بسور وقد ساعده في بناء هذا السور والي عكا ظاهر العمر الزيداني (١١٠٦ - ١١٩٦ هـ) وتصاهرا حيث تزوج خضر ابن موسى بابنة ظاهر المذكور وتركت منه نسلا. وقد اكرم موسى صهره بأن كتب على باب السور "عزه ظاهر" وهذه الجملة تبين تاريخ الانتهاء من بنائه سنة ١١٨٨ هـ وذلك بحساب الجمل المذكورة على الباب.

اما القصر الذي ابتناه االشيخ موسى البرقاوي في ذنابة فقد كان الانتهاء من بنائه سنة ١١٩٣ هـ.

وقد كُتبت عدة ابيات من الشعر على حجر مربع بقدر نصف متر نُشيد

بموسى وبأخيه عيسى، ومن عبارة في هذا الشعر يعرف تاريخ بناء القصر وهذا ما كتب هناك:

ديـار علـى ابـوابهـا السـعد راسـخ / وقد حفـها الرحمن لطـفا وايناسـا

وقد صـاغها صـوغ اللـجين ابن عبده / واتقـنها في الصنع حسنا وتأسيسا

وقد شادها للشيخ موسى بن مصطفى / حميد المزايا صنو فخر الورى عيسى

وقـال الذي قـد خط تاريخ صوغها / مجيدا لـقد اوتيت سـؤلك يا مـوسـى

ومن جملة "لقد اوتيت سؤلك يا موسى" عُرف تاريخ الانتهاء من بناء القصر اي سنة ١١٩٣ هـ وذلك بحساب الجُمّل.

وحيث ان حجر التاريخ المذكور قد تكسّر ولم يبق منه شيء فقد بقي موضع الحجر باقيا على حاله في بوابة القصر التي تهدم قسم منها، بفراغ نصف متر مربع.

ومن شيوخ البرقاوي الذي ذكر اسمه وتوقيعه في وثائق الطياح في طولكرم فخر المشايخ عيسى البرقاوي وكان غالبا يذكر في توقيعه العبارة التالية: واضع هذا الاسم تباع لشرعية وصحة البيع الفقير لله عيسى البرقاوي"، هذا حين يكون العقد بيعا كما ورد سنة ١٢١٦ هـ.

وقبلا في سنة ١٢٠٨ هـ كان ذكر توقيع الشيخ عيسى البرقاوي في محاكمة وفض مشكل بين جماعة في طولكرم على امتلاك بئر يدعى بير قزمار حيث وقع الخلاف بين المدعو علي بن اسماعيل ابو خميس من طولكرم وبين محمد الطياح وشريكه في البئر مصطفى قزمار وبعد المناقشة بين الطرفين وشهادة الشهود بعضهم من طولكرم وبعضهم من برقة تبين ان المدعي علي ابو خميس ليس له في البئر ملكية وهكذا شهد ووقع الشيخ عيسى بقوله: "وحضر الشيخ عيسى البرقاوي اليمين من قبل المالك المذكور محمد الطياح فشهد برفع يد علي المذكور عن الشيخ محمد الطياح." وكانوا لا يقبلون شهادة من كان سلوكه غير حسن او كان تاركا للصلاة.

هذا وقد جاء ذكر الشيخ عيسى البرقاوي في كتاب لمؤرخ مجهول عن

حروب ابراهيم باشا المصري في سوريا والاناضول وعلّق على حواشيها اعني الحروب ووضع فهارسها الدكتور اسد رستم استاذ التاريخ الشرقي في جامعة بيروت الاميركية. قال في هذا الكتاب اثناء حصار ابراهيم باشا لعكا سنة ١٨٣٢م: «دخل الشيخ عيسى البرقاوي عكا بعشرة الاف مقاتل للدفاع عنها ومعه الشيخ المغربي وعندما نظر عساكر عبد الله باشا والي عكا شدة القتال ولم يجدوا لهم سبيلا للاحتمال (بعد حصار دام سبعة اشهر) طلبوا الامان وخرج منهم اربعة اشخاص وهم الشيخ عيسى البرقاوي والمفتي والشيخ المغربي ووكيل الخرج وبيدهم راية بيضاء يطلبون الامان الى عبد الله باشا وعسكره فأعطاهم ابراهيم باشا الامان على دمهم ومالهم وعرضهم وامر برفع الحرب.»

اما محمود العابدي مؤلف كتاب "من تاريخنا" فوصف حصار عكا من قبل ابراهيم باشا (صفحة ١٩٧ من الكتاب) كما يلي:

«كانت عكا اشهر مدن الشام بتحصينها ولذلك اقام ابراهيم باشا على حصارها سبعة اشهر حاصرها من البحر بالبوارج الحربية المسلحة بالمدافع الكبيرة ومن البر بثلاثين الف جندي وكانت حاميتها بقيادة الشيخ عيسى البرقاوي حاكم طولكرم ثلث هذا العدد فقط وبعد لأي استطاعت المدافع ان تفتح في سور عكا ثلاث ثغرات من جهة الشرق وان تدك بعض الابراج وتدخل منها المدينة في ٢١ ايار ١٨٣٢م. وقد استمر القتال بالسلاح الابيض فقتل من الجيش المصري اثنا عشر الفا ومن حامية عكا خمسة الاف ثم أُخذ الوالي اسيرا وحُمل الى مصر مكرّما واخذ الشيخ عيسى وجماعته الامان».

وفي موضع اخر من كتابه وصف العابدي الشيخ عيسى البرقاوي حاكم طولكرم واقطاع آل البرقاوي (صفحة ٢٠١ من الكتاب) بما يلي:

«جمع قاسم الاحمد وعيسى البرقاوي (وقلعته لا تزال تطل على سبسطية

(فليحذر الذين يخالفون عن امره ان تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب اليم)
سورة النور اية ٦٢

وبرقة من الشرق) ٦٥ ألفا من فلاحي جبل نابلس واقاموا في نابلس مدة رتبوا فيها امورهم ورسموا خططهم ثم توجهوا الى القدس وحاصروا ابراهيم باشا فيها حيث فقد الباشا كثيرا من رجاله وخسر معظم معداته الحربية وكاد يُقضى على حملته لولا نجدة ابيه محمد علي له – والذي قيل انه تبناه لأن محمد علي كان عقيما.. كما روى ذلك حسين روحي المصري».

اما السيد عزت دروزه مؤلف كتاب "العرب والعروبة" فكتب في الجزء الثاني من كتابه هذا (في صفحة ٢٨٢ – ٢٨٥) يقول:

«ولقد ذكر اسم البرقاوي في سياق احداث القرن الثالث عشر الهجري في بعض المصادر الحديثة، واول والمع من ذكر من زعماء آل البرقاوي الشيخ عيسى البرقاوي الذي ذكر مؤلف "تاريخ جبل نابلس والبلقاء" انه عين شيخا لوادي الشعير والشعراويات سنة (١٢١٤ هـ) من قبل والي الشام حين عين هذا في هذه السنة خليل بك طوقان متسلما لنابلس، ويفيد هذا ان مشيخته كانت ذات صبغة رسمية وان صاحبها كان المسؤول امام الدولة عن ناحيته (اي اقطاعه المؤلف من وادي الشعير ومعه الشعراويات) اداريا وماليا على ما كان الامر يجري عليه في ذلك الظرف. والمتبادر انه لم يكن ليختار لهذا المنصب في ناحيةٍ من نواحي جبل نابلس لو لم يكن صاحب عصبية ترشحه له وتسنده فيه. وقد يفيد هذا ان زعامة عشيرة البرقاوي في هذه الناحية ممتدة الى ما قبل هذا التاريخ. وقد ورد ذكر الشيخ عيسى في كتاب ولاية سليمان باشا العادل اكثر من مرة. ففي اول مرة ذكر المؤلف ان عيسى البرقاوي شيخ وادي الشعير والشعراويات كان في جملة من استنجد بهم سليمان باشا من مشايخ جبل نابلس سنة ١٢٢٣ هـ حينما نشب النزاع بينه وبين والي الشام يوسف باشا ثم ذكره في سياق خبر توجيه وكالة الشام لسليمان باشا سنة ١٢٣٢ هـ حيث كان في جملة

من وجه اليهم سليمان باشا الدعوة من مشايخ البلاد وحكامها بصفته شيخ طولكرم ووادي الشعير والشعراويات(١) وخلع عليهم واكرمهم وكتب عليهم صكوكا بالاموال المقررة على نواحيهم. ثم ذكره في سياق خبر فض النزاع بين مشايخ جبل نابلس في السنة نفسها حيث كان من جملة من دعاهم سليمان باشا من مشايخ جبل نابلس.

وقد دون اسمه في الفرمان السلطاني الذي اورد نصه ناشر كتاب ولاية سليمان باشا في ذيل الصحيفة ٣١٦ – ٣١٧ والموجه الى محمد بك طوقان – حيث طلب السلطان (الخليفة فيه) من محمد بك طوقان تحريض مشايخ البرقاوي على الاشتراك في الدفاع عن البلاد ضد غارة الروس والانجليز على شواطىء البلاد كعكا وحيفا ويافا وغزة الخ وجمع الجيوش للجهاد ضدهم مما فيه دلالة على ما كان لشيوخ البرقاوي – وخاصة الشيخ عيسى – من صيت ومقدرة وقوة شخصية.

وقد ذكر الشيخ عيسى البرقاوي في كتاب الغرر الحسان اكثر من مرة ايضا في سياق حوادث سنة ١٢٤٦ هـ أبان حصار قلعة "صانور" من قبل عساكر والي عكا والامير بشير الشهابي حيث ذكر انه حضر مع اسعد طوقان حينما اعطى له الامان وجاء الى معسكر الامير بشير وطلب منه التوسط في تسليم القلعة كرفد له وطلب من الامير الامان لاسعد بك طوقان فأمّنه وطيّب خاطره. ثم ورد ذكره في حوادث السنة نفسها حيث ذكر ان والي عكا القى القبض عليه وعلى مصطفى طوقان لما ظهر منهما مخالفة ضد عساكره (بشأن جمع الضرائب وعجز الناس عن دفعها بسبب فقرهم). وسبق ان ورد ذكره في سياق قدوم ابراهيم باشا وحصاره لعكا حيث كان محاصرا مع جماعته وجنوح الوالي عبد الله الجزار الى التسليم بعد حصار دام سبعة اشهر وان الشيخ عيسى خرج ومعه المفتي والشيخ المصري (لعله يريد المغربي) يطلبون الامان للوالي. فأعطاهم ابراهيم باشا الامان كما سلف لعبد

(١) تاريخ فلسطين للبرغوثي وطوطح ص ٢٦٧

الله باشا وعسكره.

وذكره ايضا مؤلف كتاب ابراهيم باشا في سوريا سليمان ابو عز الدين في سياق ذكر ثورة فلسطين من نيسان الى ايلول سنة ١٨٣٤م (ص ١٦٩ - ١٧٩) حيث كان الشيخ عيسى البرقاوي من جملة زعماء الثورة الذين ناضلوا نضالا شديدا ضد ابراهيم باشا المصري ووالده محمد علي في عصيانهم للخلافة الاسلامية. وجاء في كتاب "تاريخ فلسطين" للبرغوثي وطوطح (ص ٢٥٤) ان ابراهيم باشا فتح طولكرم وفاته ان يذكر ان ذلك كان بعد حصاره قلعة شوفة الحصينة حيث حاصرها من موقع مرتفع مواز لها في الجنوب وضربها بالمدافع فدمر قسما منها ولا تزال في الموقع المذكور زيتونة رومية كبيرة في موقع مستدير من الارض تعرف بزيتونة المدفع. وقد انسحب الشيخ عيسى البرقاوي من القلعة برجاله المحاصرين الى نابلس حيث التقوا جميعا بجموعهم التي كانت تنتظرهم مع جموع جبل عجلون والبلقاء الذين جاؤوا من الاردن لنصرة اخوانهم في جبل نابلس.

يقول اسد رستم انه عندما تجاسر ابراهيم باشا على ازالة اللثام عن وجهه في عام ١٨٣١م وصرح علنا بأنه ضد السلطة الشرعية في الاسلام - اي ضد الخليفة - في القسطنطينية (استانبول) وعرض نفسه لنقد مرير في الدوائر اللاهوتية لدى المسلمين فانه ساعد على انجاح المشاريع القديمة التي وضعتها اوروبا لتقسيم الخلافة ومشاركا بعمله لتمزيق نسيج الاسلام.

بالاضافة الى ما سبق ذكره نقلا عن الجزء الاول من كتاب "تاريخ جبل نابلس والبلقاء" للنمر فقد ورد ذكر عشيرة البرقاوي ورجالها في هذا الكتاب مرات اخرى. من ذلك ذكر اسم الشيخ عيسى البرقاوي في جملة من حضروا مجلس الصلح واسقاط الدماء بين بني النمر وبني طوقان سنة ١٢٣٩ هـ (ص ٢٢٨ من الكتاب). وقد ورد اسمه في هذا

(١) تاريخ فلسطين للبرغوثي وطوطح ص ٢٦٧

الكتاب في سياق اخبار ثورة فلسطين وجبل نابلس ضد ابراهيم باشا بما يتطابق مع ما ذكره سليمان ابو عز الدين. ثم ذكر مؤلف "تاريخ جبل نابلس.." اسرة البرقاوي في سياق الحرب الاهلية حيث كانت تؤيد الحزب اليمني الذي يرأسه آل طوقان مع انهم في عقيدتهم – اي آل البرقاوي – كانوا فوق الحزبية بل يمقتونها. وكانت جموع وادي الشعير ومعه الشعراويات برئاسة عشيرة البرقاوي ورجالها مع بني طوقان ضد بني عبد الهادي المنحازين مع ابراهيم باشا وخلاصة ما ذكرناه عن الشيخ عيسى البرقاوي انه كان من ابرز حكام طولكرم عبر تاريخها زمن الاقطاع وايام العثمانيين. وبالنسبة لشيوخ البرقاوي فقد ذكر اسم الشيخ ابراهيم البرقاوي في جملة من نفاهم متصرف القدس سنة ١٢٦٦ هـ الى طريزون على البحر الاسود لتهدئة الحرب الاهلية حيث يفيد هذا ان زعامة عشيرته آلت الى والد ابراهيم المدعو مصطفى بن الشيخ عيسى وقد تصالح الشيخ مصطفى المذكور مع آل عبد الهادي بعد انسحاب ابراهيم باشا من البلاد نهائيا الى مصر يجر اذيال الخيبة. ونقول ان الشيخ مصطفى المذكور اعطيت له مشيخة وادي الشعير والشعراويات سنة ١٢٧٥ هـ بسجل المحكمة الشرعية في نابلس (جلد ١٢٩٦ – ٧٦١) وهو الذي بنى دار آل البرقاوي وقلعتهم في كفر اللبد بعد طرد ابراهيم باشا من البلاد.

وممن ذكر من حكام طولكرم من آل البرقاوي الشيخ خضر بن موسى البرقاوي (ذكر سنة ١٢٣٩ هـ) في اوراق الطياح وكان يسكن في قرية ذنابة ويقيم نهاره في طولكرم في دار سواد حيث توجد الدوائر الخاصة بادارة المدينة والاقطاع.

وكان اخر من ذكر من حكام طولكرم البرقاويون هو الشيخ خليل آغا بن ابو بكر البرقاوي، وفي زمنه ازدهرت حالة التعلم في الكتاتيب ثم ساعدت الحكومة العثمانية السكان بتأسيس لجان للمعارف كانت

تسمى قوموسيونات المعارف لانشاء الكتاتيب والمدارس الصغيرة وكان الانفاق عليها من تبرعات الاهالي اولا ثم بمساعدة الحكومة اخيرا. هذا وفي زمن خليل المذكور انشئت دائرة للطابو في طولكرم لتسجيل الاراضي على مستحقيها. كما سجل الشيخ خليل على نفسه ارضا في غابة شوقة الواقعة الى الغرب من قرية قلنسوة حيث سجل على نفسه نحو عشرة الاف من الدونمات وعلى الاخرين من شوفة او ذنابة وغيرهم من قرى الاقطاع سيما في قرى الشعراويات ووادي الشعير الغربي كما سجل على نفسه ارضا وقطعا من الزيتون في شوفة.

وقد سادت حالة الامن والطمأنينة سيما بعد انتهاء الحرب الاهلية التي اضعفت حالة السكان اقتصاديا وثقافيا وسببها اعتى الحروب غزو ابراهيم باشا المصري للبلاد ومناصرة بعض السكان له حيث دلوه على الطرق ومصادر المياه مما جعله يتحكم بالاهلين ويجندهم في جيشه لحرب سلطان المسلمين وخليفتهم. هذا ومن ناحية الثقافة والعلم كان لا بد من معين يغترف منه طلاب العلم فاتجهوا نحو الازهر الشريف بمصر القاهرة حيث كان الازهر قبلة الرغبين بالعلم من اذكياء هذه المنطقة وساعد على ذلك الصلة التجارية التي كانت قائمة بين البلدين من جهة وهجرة بعض الاسر من الريف المصري الى الريف الفلسطيني من جهة اخرى وكان الناس في طولكرم يشيرون الى هؤلاء بكلمة المصاروة، وتعني بالصلة التجارية بيع المحصولات الزراعية لهذه المنطقة واهمها البطيخ والترمس والذرة وغيرها من الغلال الى مصر عن طريق ارسالها بحرا من موانىء الساحل الفلسطيني. واشهر هذه الموانىء ميناء ابي زابورة وسيدنا علي والبرج وغيرها. وكان اصحاب المحصولات يذهبون الى مصر وكذلك المشترون المصريون يأتون الى طولكرم اما بالمراكب الشراعية واما برا عن طريق غزة.

وعودة الى امر التعليم، كان الطلبة القرويون يبيتون في الحوانيت القذرة

واخيرا انشأت المعارف المحلية محلا يستوعب ٣٠ سريرا فلم يكتب له النجاح وبقيت الازمة. هذا ومن ناحية المدارس لم يكن للدولة العثمانية مدارس تنفق عليها الحكومة في بادىء الامر كالكتاتيب والمدارس الابتدائية الا بالدور الاخير كما اسلفنا. اما من ناحية امنية فقد كان شيوخ البرقاوي قد اوجدوا في طولكرم خانات (اسطبلات) للعناية بالخيول وكان عدد هذه الخانات تسعة واوكلوا العناية بها الى فرقة من العبيد السود الفرسان المجاهدين وذلك لتكون الخيول حاضرة لجميع الفرسان من الشعب للدفاع عن الثغور في الساحل الفلسطيني، ومن هذه الخانات: خان جبر قرب كراج نابلس اليوم، وخان المصري وسط البلدة وخان الشلبي وخان العسكري وخان البلاصية وخان العدم وخان البيطار وخان ابو العيون وغيرها، وكان لفرقة العبيد هؤلاء مقبرة خاصة تدعى بمقبرة العبيد وقد درست واقيم عليها حديقة البلدية البارزة الان

ومما يثبت ويؤيد ذلك صدور الفرمان العالي الهمايوني من الديوان العالي السلطاني في استانبول الموجه الى المتسلم في نابلس محمد بك طوقان وذلك لاستنهاض همم شيوخ البرقاوي لجمع الجيوش للدفاع عن ثغور المسلمين في الساحل الفلسطيني ضد غارة الروس والانجليز على هذه الثغور.

والمؤرخ في جمادي الاول ١٢٢٢ هـ وبعد الغاء الاقطاع بقي قسم من العبيد المذكورين يقومون بخدمة ال الحاج ابراهيم البرقاوي في ذنابة ويقومون بزراعة وفلاحة ارضهم التي تدعى بالشلاليف او كتف النهر غربي قاقون وهاجر بعضهم للمفرق بالاردن وبعضهم الى الحرم القدسي الشريف كما انشأ البرقاويون جامعا صغيرا لقلة عدد السكان سابقا مكان الجامع القديم اليوم وفيما بعد قام احد السكان من عائلة المغربي وهو علي المغربي الحسني قريب ال البرقاوي قام بتوسيعه ولا

(١) ص ٣١٦ - ٣١٧ من كتاب تاريخ سليمان باشا العادل تأليف ابراهيم العوده

يزال الجامع للان يعرف بجامع المغربي.

وفي نحو عام ١٣٠٨ هـ (١٨٩٠م) توفي اخر حكام طولكرم من الامراء البرقاويون المدعو خليل اغا بن ابو بكر البرقاوي وكانت قبل وفاته بمدة تدعى طور كرم وعلى اعتبار انها كانت تابعة لمركز القضاء او القصبة في شوفة مركز ال البرقاوي وذلك كما ذكر في اخراج قيد رسمي من طابو طولكرم مؤرخ في الاول من ربيع الاول سنة ١٢٨٧ هـ.

وخليل المذكورهو الذي احدث دائرة للطابو في طولكرم قبيل سنة ١٢٨٧ هـ بقليل كما ذكر. هذا وفي تاريخ جبل نابلس والبلقاء (ص ٣٦٦) من الجزء الثاني لاحسان النمر هذه وثيقة خطية من كتاب من خليل آغا البرقاوي تدل على المحافظة على الحق وصيانة الامن والكتاب مصغر عن اصله وهو من خليل آغا البرقاوي (حاكم طولكرم) الى احمد آغا النمر متسلم نابلس:

الجناب الاكرم والمقام الافخم حضرة الاخ الاجل الامجد آغا جليل الشأن زيد قدره آمين غب التحية والاشواق الزائدة القلبية لمشاهدتكم بكل خير والمبدي لجنابكم انه وصلت ورقتكم صحبة محمود المحمد وما ذكرتموه صار معلومنا بخصوص الشيخ مصطفى القاسم من طولكرم ان عنده الى حسين الشاهين من قرية اودلا ثلاثة ليرة ونصف انكليز ثمن بقرة لا يوسف من شوفة على المذكور من طولكرم والذي بلغناه سابقا بأنه حضر جواب من سعادة البيك بهذا الخصوص وان المبلغ المطلوب اخذه العيروط من كفر قليل بناء على ان يدفعه الى اربابه، فخلاص هذه الدعوى ارسال العيروط الى طولكرم صحبة خيال فان كان ما سمعناه صحيحا يكون المطلوب يدفع المبلغ العيروط ولا يلزم زلة طولكرم دفعه من غير وساقة وجنابكم لا يحتاج الى زيادة تحشيد على اقاربكم دار سيف في هذا الوقت فنأمل اطلاق المحبوس طرفكم واجب العملية المذكورة لاجل خلاص هذه المقولة وهذا ما يلزم مع سلامنا لمن يحواه المقام ومن عندنا الجميع يسلمون عليكم ودمتم